المصاعب التي تواجه اللغة العربية من ألفية ابن مالك وحتى مؤتمر باريس بشأن تغير المناخ ٢٠١٥

تيسير منصور الشامي

مقدمة:

اللغة العربية هي رابع أوسع اللغات انتشاراً على سطح الأرض بعد اللغة الإنكليزية ولغة المندرين الصينية واللغة الإسبانية. وقد شهد القرن الماضي وبدايات القرن الحالي توسعاً هائلاً في العلم والتكنولوجيا، وظهرت خلال العقود الأخيرة أفرع جديدة باتت تطبيقاتها مع ما ينشر عنها يشكل جزءاً لا يتجزأ من حياتنا اليومية. واقترن ذلك بعولمة فعلية للعلم وبنشاط هائل في حركة الترجمة من الإنكليزية، التي يكتب بها أكثر من ٨٥ في المئة من البحوث العلمية على الصعيد الدولي. ورغم تزايد الحاجة إلى الترجمة، ومن ثم إلى المترجم بصفة عامة، والمترجم العلمي بصفة خاصة، لاتزال أمتنا العربية تعاني نقصاً كبيراً في الترجمة وفي المترجمين على السواء. وأحد المؤشرات على هذا النقص الذي أوردته التقارير الصادرة عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي أن عدد الكتب التي تترجم سنوياً عن الإنكليزية في اليونان (١١ مليون نسمة) يصل إلى خمسة أمثال ما يترجم عنها سنوياً في العالم العربي كله (نحو ٣٦٦ مليون نسمة). وثمة تقارير أخرى أشد إيلاماً تشير إلى أننا بحاجة ماسة إلى النهوض بتكوين المترجم العلمي كماً ونوعاً وإلى تنشيط حركة الترجمة العلمية لكونها وسيلة لاكتساب المعارف كافة وأداة لتطوير اللغة. وقد ظهر هذا جلياً في ترجمة الوثائق التي عرضت على مؤتمر باريس المعني بتغير المناخ (ديسمبر ٢٠١٥). إذ عانى المترجمون العرب- وأنا منهم- كثيراً من نقص المصطلحات العلمية وقصورها في المواضيع الحديثة التي تتناولها مشكلة تغير المناخ، واضطروا إلى سك كلمات ومصطلحات جديدة ونشرها قبل عرضها على مجامع اللغة العربية.

والغرض من هذا البحث هو تقديم بعض الآراء والنصائح العملية المكتسبة على مدى ثلاثة عقود من الخبرة في مراجعة النصوص العربية وتحريرها وصولاً إلى لغة سليمة واضحة. ولايتأتى ذلك بحفظ قواعد النحو والصرف ومعرفة ما يعتري تطبيقها من أخطاء ومشاكل. فالأخطاء الشائعة لاحصر لها. وهي تختلف من شخص إلى آخر. ومن أهم وسائل النهوض باللغة وتحريرها من الأخطاء دعم الهيئات التي تضطلع بتطوير تراثنا اللغوي وتشجيع الأفراد على القراءة ثم القراءة.

التطورات الرئيسية في دراسة اللغة العربية وتدريسها

في أواخر القرن الثامن الميلادي ألف عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي (سيبويه) الملقب بإمام النحاة أول كتاب في النحو، سابقاً بذلك أي كتاب آخر في هذا الموضوع بنحو خمسمئة سنة. وكان بذلك رائداً في وضع قواعد النحو والصرف في اللغة العربية وهادياً لمن جاؤا بعده من علماء اللغة.

ألفية ابن مالك

في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، نظم محمد عبد الله بن مالك الطائي الجياني قصيدة من نحو ألف بيت حوت معظم قواعد النحو والصرف في اللغة العربية وتبعه في ذلك نحويون كثر نظموا قصائد مماثلة. وانبرى الكثيرون من أمثال ابن عقيل والسيوطي والأشموني لشرح الألفية وتبعهم آخرون من أمثال الخضري والصبان وابن طولون في تزويد هذه الشروح بحواش تزيدها توضيحاً، وأضاف إليها غيرهم هوامش تزيد حواشي التوضيح توضيحاً. وظل متن الألفية يدرس في الأزهر حتى أواخر القرن الماضي.

تقول موسوعة ويكيبيديا أن ألفية ابن مالك حظيت بقبول واسع لدى دارسي النحو وذلك لما تميزت به من التنظيم والسهولة. ومع أننا نقر بفضل هؤلاء جميعاً، فإننا غير ما تراه موسوعة ويكيبيديا. فلو أن متن الألفية اتسم بالسهولة والتنظيم لما احتاج إلى شراح وشراح للشراح وشراح لشراح الشراح. وحتى لو كانت ألفية ابن مالك بهذه السهولة ووعتها العقول لكان من الصعب على أي إنسان أن ينطلق ليعبر بسجيته عما يعن له وهو مكبل بهذا المتن الضخم الذي يتعين عليه أن يتذكره ليعصم لسانه وقلمه من اللحن.

تصنيف الحروف وميكانيكية تحليلها

عني العرب القدامى منذ أكثر من ألف سنة بوضع المعاجم وبرعوا فيها وطوروا في طرائق ترتيبها وتصنيفها وفي ما حوته من ألفاظ. وكان من بين الرواد في هذا المجال حتى بداية القرن الرابع عشر: الفراهيدي، والشيباني، وابن السكيت، والقالي، وابن فارس، والجوهري، وابن سيده، وفيروز أبادي الذي وضع معجم القاموس المحيط الذي نقل عنه حرفياً معجميون كثر. وفي القرن السادس عشر نشأت نهضة علمية ارتكزت على العلوم العملية والتجريبية، ومن بينها تشريح الجهاز الصوتي للإنسان والتعرف على مخارج الحروف وآليات النطق بها وفهم علم الصوتيات. وقسمت الحروف في مختلف اللغات تقسيماً ثنائياً إلى حروف صامتة (Consonants) وحروف وحركات صائتة (Vowels). وأصبح هذا التقسيم الثنائي للحروف إلى صوامت وصوائت أساساً للدراسات الصوتية والدراسات المقارنة بين اللغات وخضعت كل اللغات تقريباً لهذا التصنيف ولهذه التسميات ماعدا اللغة العربية التي ظلت تستخدم تعبيري الحروف الصحيحة والحروف المعتلة إلى وقتنا هذا. أدى هذا إلى شيوع الخطأ وتفشيه في المعاجم التي ظهرت بعد ذلك، وبخاصة معجم القاموس المحيط وما تبعه من معاجم مثل "محيط المحيط" و"الجاسوس على القاموس" إذ لاتزال تعتورها جميعاً الأخطاء والخلط بين الحروف كعدم التمييز مثلاً بين الهمزة والألف وبين السكون بمعنى الجزم وأحرف المد. ويبين الجدول التالي أعداد الصوائت والصوامت في أوسع اللغات انتشاراً:

أعداد الصوائت والصوامت في بعض اللغات

اللغة	عدد الصوائت	عدد الصوامت
العربية	٦	٢٨
الصينية	٩	٢٦
الروسية	٥+ (١)	٣٤
الإسبانية	٥	١٩+(١)
الإنكليزية	١٢	٢٤
الفرنسية	٧	٢٠+(٢)

والصوائت في اللغة العربية هي حركات المد القصيرة: الفَتْحَةُ والضَّمةُ والكَسْرةُ. يضاف إليها حروف المد الطويلة: الألف المسبوقة بحرف عليه فتحة والواو المسبوقة بحرف عليه ضمّة والياء المسبوقة بحرف تحته كسره.

قد تبدو مسألة تصنيف الحروف وتسمياتها مسألة بسيطة ذات طبيعة نظرية لا تؤثر على الكتابة العربية في الواقع العملي. والحقيقة غير ذلك؛ فهي تؤثر بشدة في الإملاء، بل هي من أسباب شيوع الخطأ في اللغة العربية وبخاصة في كتابة الهمزة.

ينقسم الإملاء العربي إلى ثلاثة أنواع (١) كتابة القرآن الكريم وهي مقدسة ولا تخضع لأي تغيير، وعلينا أن نتذكر هنا أن كُتاب الوحي في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكونوا متمكنين من حروف المد، فقد كانوا في عهد سابق على اكتشاف علم التشريح بمئات السنين، (٢) كتابة العروض (الشعر) الذي يكتب كما ينطق، (٣) الكتابة العادية. ومن الأمثلة الشائعة للخطأ في كتابة الهمزة طريقة رسم كلمتي "شيء" و"ناشئ" فالياء في كلمة شيْء ليست حرفاً صائتاً لأنها ليست مسبوقة بكسرة وإنما هي حرف صامت أما في كلمة

ناشئ فهي ليست حرفاً مستقلاً بل هي همزة مسبوقة بكسرة على الحرف الذي يسبقها وهو الشين ومن ثم ترسم كرأس حرف "ع" على ياء إذا جاءت في آخر الكلمة وعلى نبرة (ئـــ) إذا جاءت متوسطة ويمكن التفرقة بينهما بمحاولة إشباع الياء الأخيرة بإطالة النفس في النطق بها فإن قبلت الاستطالة فهي ياء صامتة تمثل حرفاً مستقلاً، لذا ترسم الهمزة المرافقة لها على السطر أما إذا لم تقبل الاستطالة فهي همزة متطرفة ترسم على نهاية الياء والواقع أن معظم الأخطاء الشائعة تنشأ عن عدم فهم الطرائق الصحيحة لرسم الهمزة، سواء كانت متطرفة أو متوسطة.

ويتخرج معظمنا من المراحل التعليمية بزاد قليل لايسمن ولا يعصم من الخطأ فيواجه الحياه بتعليم عليل وقلم غليل. وهذا هو أحد أسباب تراجع اللغة العربية منذ القرن السابع عشر مقارنة باللغات الشائعة استعمالاً.

المعاجم العربية والإنكليزية الحديثة

صدرت آخر طبعة من معجم (Oxford Dictionary English (EOD في أواخر الثمانينيات من القرن الماضي وضمت نحو ٧٠٠٠٠٠ مدخل معظمها يخص المصطلحات العلمية والتقنية وأنشأت مؤسسة EOD المعنية بطباعة المعجم واستخدامه هيئة دائمة تعنى بتطوير المعجم وضبط مفرداته الجديدة والإجابة عن استفسارات مستعملي المعجم الذي يضاف إليه سنوياً نحو ١٠٠٠٠ كلمة جديدة. أما المعاجم العربية وأكبرها لسان العرب لابن منظور المصري الذي يضم نحو ٩٠ ألف مدخل وأحدثها معجم الوسيط الذي أنجزه مجمع اللغة العربية في القاهرة في ثلاثينيات القرن العشرين، فلم تصدر طبعة حديثة منه حتى يومنا هذا. وللإنصاف، يرجع هذا جزئياً إلى طبيعة اللغة الإنكليزية واختلافها عن طبيعة اللغة العربية. فالعربية أساساً لغة اشتقاقية أما الإنكليزية فهي لغة تركيبية استفادت بلا حدود من اللغتين اليونانية واللاتينية. كما استفادت اللغة العربية من اللغة الإنكليزية بصدور أعداد كبيرة من المعاجم المتخصصة الثنائية اللغة وخاصة الإنكليزية- العربية في فروع العلم كافة وزاد رصيدها من المفردات والاصطلاحات الجديدة أضعافاً مضاعفة.

اللغة العربية في الأمم المتحدة

أنشئت دائرة الترجمة العربية في الأمم المتحدة في عام ١٩٥٥، وكانت في البداية وحدة محدودة ليس بها سوى عدد ضئيل من الموظفين. وأصبحت اللغة العربية لغة رسمية في الجمعية العامة للأمم المتحدة والهيئات التابعة لها في عام ١٩٧٣، ثم أصبحت لغة رسمية في مجلس الأمن والمجلس الاقتصادي والاجتماعي وسائر هيئات الأمم المتحدة في عام ١٩٨٠ إلى جانب اللغات الخمس الأخرى وهي الإسبانية والإنكليزية والروسية والصينية والفرنسية. وزاد ملاك الموظفين في دائرة الترجمة العربية ليصبح في حجم ملاك الموظفين في الدوائر الأخرى في كل من نيويورك، وجنيف، وفيينا، وأديس أبابا، وبيروت. وزادت ميزانيتها في عقد الثمانينيات من القرن الماضي في الأمانة العامة للأمم المتحدة في نيويورك فوصلت إلى نحو ٧٠ مليون دولار سنوياً مع بدايات العقد الثاني من هذا القرن.

الترجمة وأثرها في اللغة العربية

ازدهرت الترجمة العربية في العصر العباسي الأول وخاصة في فترة خلافة الرشيد وولديه الأمين والمأمون واشتهر فيها مترجمون من أمثال ابن المقفع وفضل بن بويخت وحنين بن إسحق وابنه إسحق بن حنين وثابت بن قرة ويوحنا بن البطريق وغيرهم. وكانت النصوص آنذاك تكتب على رقاع من جلود الحيوانات الصغيرة، ويكافأ كبار المترجمين على ترجمة أو مراجعة النصوص بما يعادل وزنها ذهباً. وترجم العرب نصوصاً كثيرة عن السيريانية واليونانية والفارسية. وإلى جانب ما ألفه العرب أنفسهم، شكلت الأعمال التي ترجموها إلى العربية قاعدة بيانات كبيرة في الطب والعلوم والفلسفة والاجتماع أفادت منها البشرية جمعاء في الوصول إلى النهضة العلمية الراهنة.

تتم الترجمة عادة بطريقة الترجمة الحرفية: (meta-phrasing) أي الصياغة بترجمة كل كلمة أو لفظ في اللغة المصدر بالكلمة أو اللفظ المرادف له في اللغة الهدف أي بترجمة كلمة مقابل كلمة، وهي الحالة المثالية. ونظراً لاختلاف اللغات، فإن الترادف لايسفر في أغلب الأحيان عن تطابق حقيقي، وقد يسفر عن تطابق ظاهري فقط أو غير حقيقي؛ عندئذ يتعين على المترجم إعادة صياغة الناتج بطريقة

ترجمة المعاني (paraphrasing) وصولاً إلى المعنى الحقيقي. وقد يلجأ المترجم إلى هذا الأسلوب ليس لعدم التكافؤ بين الكلمات في اللغة المصدر واللغة الهدف فحسب، ولكن أيضاً بسبب اختلاف الثقافات. ومن ثم، فإنه يعمل على استحضار المواقف المتناظرة في الثقافتين والتعبير عنها بالأسلوب الذي يناسبها مراعياً في ذلك الفروق بين البيئتين. وغالباً ما يتجلى ذلك في التعابير الاصطلاحية.

أمثلة لبعض التعابير الاصطلاحية في الإنكليزية والعربية

العربية		الإنكليزية
الترجمة الحرفية	ترجمة المعنى	
مسلحون حتى الأسنان	مدجج بالسلاح	armed to the teeth
هامة الجبل الجليدي	غيض من فيض أو قليل من كثير	top of the iceberg
تمطر قططاً وكلاباً	مطر كأفواه القرب	raining cats and dogs

وليس هناك تعارض بين طريقتي الترجمة الحرفية والترجمة بإعادة الصياغة ولاتستبعد أي منهما الأخرى. وغالباً ما تكون الترجمة في الواقع توليفة من هاتين الطريقتين. ولأن هدف الترجمة هو النقل الأمين للمعنى، ينبغي للمترجم أن يلتزم الترجمة الحرفية قدر الإمكان وألا يلجأ إلى إعادة الصياغة إلا عند الضرورة. كما ينبغي له أن يحافظ على ترتيب الكلمات والجمل والفقرات كما هو في النص الأصلي لأن هذا الترتيب ينطوي على ترتيب للأولويات ومدى الأهمية؛ وعليه أيضاً أن يحافظ على علامات الترقيم مع مراعاة مقتضيات الاختلاف بين اللغة المصدر واللغة الهدف. وتؤثّر اللغة المصدر في اللغة الهدف، ويكون ذلك سلبياً في بعض الأحيان وإيجابياً في كثير من الأحيان. من نماذج التأثير السلبي، مثلاً، أن العبارة التالية التي ترد كثيراً في نهاية الرسائل التي توجهها البعثات الدبلوماسية للدول إلى الأمين العام للأمم المتحدة:

" ... I would be grateful if you circulate the present letter as an official document of the General Assembly ..."

والتي تترجم إلى العربية عادة على النحو التالي:

"... وأرجو ممتناً تعميم هذه الرسالة باعتبارها وثيقة رسمية من وثائق الجمعية العامة..."

والواقع أن كلمة 'باعتبارها' هنا تأتي كمرادف عربي لكلمة "as" في الإنكليزية وهو تأثير سلبي من اللغة المصدر على اللغة الهدف. فنحن نقول في اللغة العربية، مثلاً" أعطيك هذا الكتاب هدية وليس باعتباره هدية ولابوصفه هدية".

ثمة مثال آخر على التأثير السلبي هو تكرار بعض الكلمات في الترجمات العربية دونما مبرر كما في المثال التالي "The more you use gold، the more it shines" التي تترجم حرفياً إلى "كلما استخدمت الذهب، كلما ازداد بريقاً" وهو أسلوب لا يستقيم مع طبيعة اللغة العربية، والأولى هو أن تترجم مثلاً إلى: "كلما استخدمت الذهب، ازداد بريقاً"؛ وفي القران الكريم "كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ..." . ومن نماذج التأثير الإيجابي للغة المصدر على اللغة الهدف في الترجمة إثراء اللغة العربية بالجديد من المصطلحات الحديثة في جميع المجالات ولاسيما في مجال العلم والتكنولوجيا. وهناك معجم واحد صدر في عام ١٩٨٢ أضاف إلى اللغة العربية أكثر من مئة ألف مدخل كلها في مجال العلم والتكنولوجيا (المرجع ٤).

ومن الأساليب التركيبية المتبعة في العربية أيضا النحت، وهو أن تدمج كلمتين مستقلتين أو أكثر في كلمة واحدة، مثل أربعمئة وخمسمئة وكلمة "كهرمغنطيسية" من كلمتي "كهرباء" و"مغنطيسية" وهي مرادف لكلمة "electromagnetism"؛ وكلمة "البسملة" وهي نحت للتعبير عن قول "بسم الله الرحمن الرحيم" والحوقلة، وهي نحت للتعبير عن قول "لا حول ولا قوة إلا بالله" وكلمة "درعمي" وتعني